دين المتنبي

٣ ـ أبو الطيب المتنبي

للأستاذ محمد محيي الدين عبد المجيد الحميد

ثم يقول بعد ذلك فى شأن سيف الدولة :

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ... ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل ... وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم ... حتى يعاقبه التنغيص والمنن
فغادر الهجر ما بينى وبينكم ... بهماء تكذب فيها العين والأذن

وكان كلما نازعته نفسه الى سيف الدولة واستشعر شيئاً من الأسف على فراقه يعلل نفسه بأنه لقى أهلا بأهل فيقول :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه ... وإن لم أشأ تملى على فأكتب
إذا ترك الانسان أهلا وراءه ... ويمم كافوراً فما يتغرب

ولكنه ما عتم أن اجتوى كافوراً وتبرم به ويئس مما كان أمله فيه ، فلما اعتزم أن يتركه أسف على غدره ونازعته نفسه إلى ممدوحه الأول وهو يهجو كافورا :

وفارقت خير الناس قاصد شرهم ... وأكرمهم طرا لألأمهم طرا
فعاقبنى المخصى بالغدر جازيا ... لأن رحيلى كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا قائل الرأى لم أعن
بحزم ولا استصحبت فى وجهتى حجرا

ومع أنه يعترف بالغدر فقد حانت له فرصة ليعود إلى الوفاء فلم يهتبلها ، تلك أن سيف الدولة حين علم رجوعه من مصر أرسل إليه ابنه بهدية فاكتفى بأن يرسل إليه قصيدة يقول فيها :

كلما رحبت بنا الروض قلنا ... حلب قصدنا وأنت السبيل
فيك مرعى جيادنا والمطايا ... وإليها وجيفنا والنميل
والمسمون بالأمير كثير ... والأمير الذى بها المأمول
الذى زلت عنه شرقاً وغرباً ... ونداه مقابلى ما يزول
ومعى أينما سلكت كأنى ... كل وجه له بوجهى كفيل

ويمر بعد ذلك عامان وبضعة أشهر فيرسل اليه سيف الدولة كتاباً بخطه يسأله فيه المسير إليه فيعتذر له بقوله :

وما عاقنى غير خوف الوشاة ... وإن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم ... وتقريبهم بيننا والحبب

وقد عاوده طبعه الذى دللنا عليه حين ورد على عضد الدولة فقد قال له فى أول لقاء :

وقد رأيت الملوك قاطبة ... وسرت حتى رأيت مولاها

ثم يقول له بعد ذلك :

يقول بشعب بوان حصانى ... أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى ... وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت : إذا رأيت أبا شجاع ... سلوت عن العباد وذا المكان
فان الناس والدنيا طريق ... إلى من ماله فى الناس ثان
لقد علمت نفسى القول فيهم ... كتعليم الطراد بلا سنان

وانظر إلى هذا البيت الأخير فانه يعتذر فيه عن كل مدائحه التى قالها من قبل عضد الدولة بأنه كان يقولها ليروض نفسه ويعلمها حتى إذا اعتادت لم يحسن منه القول إلا فيه

نعوته

ليس فى حياة أبى الطيب مسألة أشد غموضاً من سر هذا اللقب الذى نعوته به ، ومهما يكن فى حياته من الدقة والغموض فانا نعترف بقوة الدقة والغموض اللذين أحاطا بهذا اللقب . وآية ذلكم أن الكتاب ما زالوا يكتبون عن أبى الطيب منذ كان الى يوم الناس هذا وهم يختلفون فى الابانة عن حقيقة هذا اللقب . وكتاب عصرنا هذا مختلفون أيضاً فى الاستنتاج والتعليل . ولقد حاولت أن أقف على الوضع الحقيق لهذه المسألة متخذاً من شعره وأخباره نبراساً أستضىء به فأعيانى تطلابه ووقعت فى حيرة

بعد من العمر عتياً ، فكانت وفاته فى ٢٤ أوغسطس سنة ١٧٧٠ عن ٤٧ سنة ونحو ٩ أشهر

لو أتيح له أن يعمر طويلا لربما بذ الكثيرين من أعاظم الشعراء ، وتبوأ مكاناً ليس بعيداً من شكسبير وغوته ودانتى

وتقديراً لنبوغه أقام هواة أدبه نصباً تذكارياً لاسمه فى ساحة كنيسة زدكلف Redcliffe فى برستل ، ونقشوا عليه كلمات مقتبسة من وصيته الأخيرة ، وهى :

« ذكرى طوماس تشاترتن ، لا تحكم علىّ أيها القارئ إن كنت تقياً ؛ إذ الحكم لقوة عليا ، ولهذه القوة وحدها سأجيب . . . . »

(يتبع) مريس المقدسى

وليس وإبهام هي شر من الاعراض عنه ، ذلك أنه لم يعن أحد ممن عاصر المتنبي أو قرب من عصره بالبحث عما يشوقنا اليوم أن نعرفه بحثاً يثلج صدر الحقيقة ويملأ قلب الناس بصحة أسبابه ونتائجه ؛ فكل ما بين أيدينا كلمات منثورة في بطون الكتب جرى بعضها على ألسنة قوم عرفوا بالهوى فيه والتعصب له الى حد التغاضي عن القبيح ، وجرى بعضها الآخر على لسان قوم لم يعرف الناس عنهم شيئاً أو عرفوا عنهم الكراهية له الى حد تشويه محاسنه ؛ فمهمة الباحث اليوم من أشق المهام ؛ وكل ما يمكن أن يصل إليه باحث ظنون قد لا يطول به الأمد حتى تتكشف له عن نفسها تكدعة من خدع الغرور

حكى أبو الفتح عثمان بن جني قال :

سمعت المتنبي يقول : « إنما لقبت بالمتنبي لقولي » :

أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود

أنا في أمة تداركها الله (م) غريب كصالح في ثمود

وفي هذه القصيدة يقول :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وليس هذا الذي ذكره أبو الفتح إلا كالتحملات التي يرتكبها بعض الناس باخراج الألفاظ عن أوضاعها ومعانيها . ذلك بأن أبا الطيب نفسه كان يتألم إذا نبزوه بهذا اللقب ، فهو يعلم أن الناس لا يطلقون عليه ذلك تشبيهاً له بالأنبياء وان كانت هذه الصيغة قد تستعمل في العربية لافادة معنى التشبيه . وذكر أبو العلاء في رسالة الغفران ما كان أعداء أبي الطيب يتحدثون به عنه فقال : « وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه أنه لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه : (ههنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل) وأنه مضى الى تلك الناقة وهي رائحة في الابل فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة ، وأنه ورد بها المحلة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم . وحدث أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين فجرحته جرحا مفرطاً ، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر ، وقال للمجروح لاتحلها في يومك وعد له أياماً وليالي ، وأن ذلك الكاتب قبل منه فبرئ الجرح فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أكبر اعتقاد ويقولون هو كمحيي الأموات . وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل أنه أراد الانتقال من موضع الى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألبح عليهما في النباح ثم انصرف ، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : « إنك ستجد ذلك الكلب قد مات . فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر . ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئاً من المطاعم مسموماً وألقاه له وهو يخفى عن صاحبه ما فعل » اهـ . وقال أبو العلاء في رسالة الغفران مرة أخرى :

« وحدثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة بمعنى المرتفع من الأرض . وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه وإنما هي مقادير يديرها في العلو مدبر يظفر بها من وفق ولا يراع بالمجتهد أن يخفق ، وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألهاً ، ومثل غيره من الناس متدلهاً ، فمن ذلك قوله :

. . . . . ولا قابلا إلا لخالقه حكما

وقوله :

ما أقدر الله أن يخزي بريته ولا يصدق قوماً في الذي زعموا

وإذا رجع الى الحقائق فنطق اللسان ، لا ينبئ عن اعتقاد الجنان لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل تدنيا وإنما يجعل ذلك تزيناً يريد أن يصل الى الثناء ، أو غرض من أغراض الخالبة أم الفناء » اهـ وأبو العلاء في هذه العبارات مضطرب كل الاضطراب ، فبينا هو يقص عليك معجزات أبي الطيب التي خرق بها على بني عدي إذا هو يذكر لك أنه إنما طمع فيما طمع فيه من هو دونه بعد همة وعلو نفس ، ولا يمكن أن يكون مقصوده بذلك النبوة ، ثم هو بعد ذلك يعود فيذكر لك أن أبا الطيب كان يعترف بالله تعالى ويرشدك الى دلائل هذه العقيدة من شعره ، ويعود الى التشكك في دلالة هذه الأقوال على ما في نفسه لأن نطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الجنان ؛ وكأن أبا العلاء كان يعاني ما تعانيه اليوم من غموض حال المتنبي وشدة خفائها

والذي نستطيع أن نعقله أن هذا اللقب قد نبزه به أعداؤه وليس له حقيقة برزت في الوجود ، وأن أبا الطيب كان يقوم بدعوى سياسية : كان يطلب الملك ويمني نفسه به ويعد له عدته التي ظن أنها تصل به إليه من المران على الحرب وجمع المال والاستكثار من الأعوان وتدبير المؤامرات ، ولم يكن يجسر على

الجهر بذلك فى عواصم الملك التى عاش فيها فكان يخرج الى البوادى يتحين الفرصة ويستجمع للوثوب وتحقيق ما فى نفسه من آمال ، وهذا سر من أسرار انتقاله من ملك الى ملك ، وقد ساعده على هذا الحلم اللذيذ ما كان يقع تحت نظره كل يوم من ثورات وفتن وانقلاب ، وقوة إيمانه بأنه أفضل من سعت به قدم ؛ وكان ربما قنع بأقل من الملك فرغب فى ولاية من الولايات يخلعها عليه كافور ، ولعل هذه القناعة لم تكن إلا لأنه فهم أن الولاية سبب يصل من طريقه الى الملك كالذى يراه فى جماعة من ملوك عصره . ولعل كافوراً لم تخف عليه سريرته فحرمه الولاية التى كان وعده إياها . ولعله هو نفسه قد شعر بأن كافوراً فطن لدخيلة نفسه ففر من مصر تحت جنح الليل . أفلست تراه يقول لكافور أول وروده عليه :

وغير كثير أن يزورك راجل ... فيرجع ملكا للعراقين واليا

حتى إذا تأخر جواب كافور وخشى أن يفوته المأمول أو أن يظن به عدم الكفاية للاضطلاع بأعباء الولاية عاوده بقوله :

فارم بى حيثما أردت فانى ... أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كا ... ن لسانى يرى من الشعراء

ولم يزل يظهر لكافور تلهفه على إنجاز موعوده بالتعريض مرة وبالتصريح مرة أخرى حتى أدركه اليأس وعلم أن فى الأمر شيئاً . أنظر إلى قوله :

إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ثم انظر إلى قوله :

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ... ودون الذى أملت منك حجاب
وفى النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتى بيان عندها وخطاب

قال أبو منصور الثعالبى : «وما زال فى برد صباه إلى أن أخلق برد شبابه وتضاعفت عقود عمره يدور حب الولاية والرياسة فى رأسه ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه فى الخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك فى مثل قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم

وكقوله :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا ... كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده ... وضرب كأن النار من حره برد
إذا شئت حفت بى على كل سابح ... رجال كأن الموت فى فمها شهد

وكان كثيراً ما يتجشم أسفاراً بعيدة أبعد من آماله ويمشى فى مناكب الأرض ويطوى المناهل والمراحل ولا زاد إلا من ضرب الحراب على صفحة المحراب » اهـ .

هذه فيما نعتقد حقيقة حاله ؛ فأما ادعاء النبوة فلا نستطيع أن نتقبله مهما زعم الناس أن العصر الذى عاش فيه ورغبته فى أن يكون أبعد أهل عصره أملاً ، وكثرة الدعوات الدينية والسياسية ، كل أولئك تقرب إلى العقل أنه ادعى النبوة . نقول ذلك بعد علمنا تقدير الناس لمقام النبوة ورسوخ عقيدة الاسلام فى أذهانهم ، ومنها أن محمداً (ص) ختام الأنبياء حتى أن الدعوات الدينية التى ادعاها المدعون بعد ذلك لم تكن إلا فى نواحى الامامة وما يتصل بهما . ونحن نرى كل هذه الدعوات كانت تستند إلى نصوص يزعم الراوون لها أنها صدرت عن رسول الله أو أفهام فى نصوص أخرى ثابتة . ولو أن أبا الطيب كان قد ادعى النبوة لما وجد من الناس من ينتظر عليه حتى يتم دعواه . ولعله لم يكن من الحكمة فى دعواه التى ارتضينا أمرها بحيث يخفى شأنه ، فكان لذلك لا يأمن جانب أحد ، وكان لا يدخل بلداً إلا ليقذف به إلى بلد ، ثم كانت بعد ذلك نهايته المحتومة

أبو الطيب والنحاة (1)

ليس يسوغ لى فى مستهل هذا البحث أن أغفل أن أبا الطيب كان قد أخذ من العربية بأوفر حظ ؛ فهو حافظ لغريبها حفظ الباحث المستقصى حتى ليسأله أبو على الفارسى : « كم لنا من الجموع على وزن فِعْلَى » ؟ فيبادره بقوله « حِجْلَى وظِرْبَى » ويبحث أبو على ليلته فى كتب اللغة لعله يعثر لهما على ثالث فلا يجد . ويقول أبو على فى شأنه : « ما رأيت رجلاً فى معناه مثله » وهذه الشهادة من أبى على الذى كان يناصبه العداوة

(1) لنا بحث مستفيض فى هذا الموضوع : فصلنا فيه القول بأمثلته وشواهده ورددنا أكثره إلى لغات القبائل ، ولم نشأ أن نلقيه كله خوف الاطالة ، ولكنا سننشره فيما بعد بحثا مستقلا فى مجلة الرسالة

ويتحامل عليه كافية للدلالة على قدره ؛ وكان مع اطلاعه على مفردات اللغة وغريبها عالماً بمواطن استعمالها متمكناً من قواعدها خبيراً بلغات القبائل . وله شعر جزل لا نظير له فى شعر أحد من شعراء العربية . وقد خلا كثير من شعره من كل مأخذ وتجانب كل انتقاد ، ولكن له مع ذلك شعراً قد جانب الطرق المشهورة فى العربية إلى طرق لا يقرها النحاة الذين جعلوا مهمتهم تتبع المعروف الجارى على الألسنة ورسموه قواعد أرادوا أن تكون هى لسان الناس عامة ؛ وإن يكن أحد قد نال من أبى الطيب فى حياته وبعد موته منالاً له وجه صحيح وقد بقى أثره والدليل عليه فأولئك هم النحاة ، ولسنا نعنى بالنحاة علماء الأعراب فحسب ، وإنما نريد بهم كل من كان يتكلم فى فرع من فروع العربية ؛ فهؤلاء هم الذين جرحوا عزة المتنبى وطامنوا من كبريائه ؛ وهؤلاء هم الذين كان أبو الطيب يضيق بهم ذرعاً وتتألم نفسه إذا وجه واحد منهم خطابه إليه . وكيف لا يضيق صدره وشعره هو وسيلته التى يكتسب بها رضاء الناس وهم يعمدون إلى هذه الوسيلة فيضعفون من شأنها ويحاولون أن يقللوا من قيمتها . ولم يكن النحاة فيما نعتقد قد أكثروا من تعقبه والحملة عليه لوجه العلم ولا انتصاراً للحق ، وإنما كان ذلك منهم سلاحاً من أسلحة السياسة التى وجهت إلى الرجل ؛ وليس يعنينا بحث ذلك الآن ولكننا نذكر أنه — مع عدم توفر حسن النية — قد أمكن للنحاة أن يجدوا فى شعر أبى الطيب ما يستمسكون به عليه ويتخذونه ذريعة للتشفى منه ولأرضاء سادتهم . وكانوا يجهونه بذلك أحياناً ؛ وكانت تأخذه العزة فيسب ويقذع فى سبابه أحيانا شأن المغيظ المحنق الذى يداخله الشك فى أمرهم ؛ وكان ربما ضن عليهم بالاجابة فأحالهم على بعض أصدقائه من النحاة . حدثوا أن ابن خالويه وجه إلى أبى الطيب نقداً فى حضرة سيف الدولة فقال له أبو الطيب : « أسكت ويحك فانك أعجمى ! فما لك وللعربية ؟ » وكان مع ابن خالويه مفتاح فضربه به فشج رأسه . وحدثوا أن سائلاً سأله عن قوله فى مطلع قصيدة مدح بها أبا الفضل ابن العميد :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

فقال له : كيف قلت لم تصبرا فقال : لو كان أبو الفتح حاضراً لأجاب ، يريد أبا الفتح عثمان بن جنى وكان صديقاً حميما له . وبعض المآخذ التى أخذها عليه النحاة تافه أو لا وجه له كالذى حدثوا أن ابن خالويه سمعه ينشد سيف الدولة :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

فقال له : ياأبا الطيب إنما يقال شجاه بتوهم فعلاً ماضياً . فقال له أبو الطيب : أسكت فما وصل الأمر إليك . يعنى أنه أفعل تفضيل

وبعض المآخذ التى أخذوها عليه صحيح لاشبهة فى أنه أخطأ فيه الجادة كالتعقيد اللفظى والمعنوى ، واستعمال الغريب الوحشى ، والعدول عن سنن القياس ، وقبح بعض المطالع ، وبعض المقاطع ، واستعمال اللغات المهجورة . وأمثلة ذلك كله ميسورة قريبة التناول

وفى كتب علماء البلاغة أمثلة وشواهد كثيرة من شعر المتنبى يعدون بعضها فى عيون الشعر ومحاسنه ، ويعدون بعضها الآخر فى رذيل الشعر ومستكرهه

أما علماء الأعراب فقد جروا على قاعدتهم فى عدم الاحتجاج بشعر المولدين مع أبى الطيب ، ولكن كثيراً منهم يذكر أبياتاً من شعره فى موطن من ثلاثة مواطن : موطن التمثيل لا الاستشهاد ، وموطن مخالفة القياس ، وموطن التطبيق ، وذلك فى المعقد من شعره . وقد ذكر العلامة رضى الدين فى شرح الكافية بعض أبيات للمتنبى على أنها مخالفة للقياس . وللعلامة المحقق جمال الدين ابن هشام صاحب مغنى اللبيب ، ولأبى السعادات ابن الشجرى فى أماليه شروح وتخريجات لأبيات كثيرة من معقد أبيات أبى الطيب . وقد كان لأبى الفتح عثمان بن جنى صديق المتنبى اليد الطولى فى توجيه أنظارها إلى هذه الناحية بما بذله من جهد فى تخريج شعر المتنبى حتى كان أبو الطيب نفسه يقول له : إنى لم أقل هذا الشعر لهؤلاء النحاة وإنما أقوله لك

أيها السادة ؛ هذه كلمتى التى كتبتها على عجل ، وإنى لسعيد بأن أتشرف بالقائها بين أيديكم ، وأشكر لجنة المهرجان التى أتاحت لى هذه الفرصة النادرة للتعرف إليكم ، والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمد محيى الدين عبد الحميد
المدرس بكلية اللغة العربية